التوحيد الديني والمجددون الدينيون في فكر المستشرقين منذُ اقدم الأزمنة وحتى ظهور السيد المسيح

م.د. احمد عبيس فيروز
وزارة التربية/ تربية بال
Ahemdalrmahy71@gmail.com

الخلاصة:
أثار موضوع التوحيد الديني لدى المؤرخين أهمية كبيرة، فما وُجِد من وثائق تاريخية لا تكفي للجزم بمراحل التوحيد الديني تاريخياً بشكل متسلسل وموثق، كما أن هنالك اشارات تاريخية لا تترك مجالاً للمؤرخين لتجاهل ذلك التوحيد الديني وظهور مجددين دينيين ساهموا في تطور الفكر الديني الشرقي القديم، وبما أنَّ دراسة التاريخ القديم تتطلب الاعتماد على كتب المستشرقين فهم سبقوا أحفاد وورثة حضارات عظيمة لدراسة حضاراتهم، وقام خلالها المستشرقون بفك رموز ونقوش تلك الحضارات، ومنها أسرار فكرها الديني، وبما أنَّ الشعوب الجزرية(سكان شبه الجزيرة العربية) هم مركز فاعلية شعوب الشرق الادنى القديم فقد تركز محور البحث حول دراسة التوحيد الديني وظهور المجددين لدى تلك الاقوام ووجهة نظر المستشرقين فيه.

الكلمات المفتاحية:التوحيد؛ التجديد الديني؛ الانبياء؛ المستشرقون؛ اليهود؛ السيد المسيح.

Religious monotheism and religious innovators in the thought of orientalists

Dr. Ahmad Obais Fayrouz
Ministry of Education / Education of Babylon
Ahemdalrmahy71@gmail.com

Abstract:
The issue of religious monotheism has been of great importance to historians, as there are no historical documents that are not sufficient to confirm the stages of the passage of religious unification historically in a serial and documented manner. Since the study of ancient history requires relying on orientalist books, they preceded the descendants and heirs of great civilizations to study their civilizations, during which the Orientalists deciphered the symbols and inscriptions of those civilizations, including the secrets of their religious thought, and since the island peoples (the inhabitants of the Arabian Peninsula) are the center of the effectiveness of the peoples of the Near East The focus of the research focused on the study of religious monotheism and the emergence of the innovators among those peoples, and the orientalists' point of view on it.

Keywords: monotheism; religious renewal; prophets; orientalists; Jews; Jesus Christ.

المقدمة:

التوحيد هو الاعتقاد بوجود إله واحد لا شريك له منفرد بذاته في عدم المثل والنظير، ويقال لديانة التوحيد باللغات الاوربية Monotheisn وتعود للأصل اليوناني(Monos) بمعنى واحد و(Theos) بمعنى إله، أما تعدد الآلهة فهو على النقيض منه[١].

وقد عُدت الاقوام الجزرية محور فاعلية شعوب الشرق الادنى القديم حضارياً وفكرياً وكانت مصدراً مهماً لتراث وحضارات هذه الشعوب؛ لذلك تركز محور البحث بشكل كبير حول عقائد الجزرين، وتنقسم آراء الباحثين المستشرقين على قسمين وأيُّهما أقدم عقيدة التوحيد أم عقيدة تعدد الآلهة:

القسم الأول:

هناك من الباحثين من يرى أن عقيدة التوحيد قد سبقت كل العقائد الاخرى، ويرى وليم شميدت أنَّ الإنسان في أقدم المجتمعات ما قبل الزراعية آمن بوجود الإله الأكبر المحتجب وهو اعتقاد غامض بوجود إله كبير(إله سماوي أكبر او أعلى) وهو دليل على وجود(توحيد أولي) قديم سبق الأديان التوحيدية المعروفة، وأنَّ هذا التوحيد الأولي هو أصل الأديان، ويرى شميدت أنَّ معرفة الإنسان للزراعة والتوطن جلبت عقيدة التعددية، ومن ثم ابتعاد أو احتجاب الاعتقاد بالإله الأكبر، وهذا ما نراه في كثير من الأديان التي تؤمن بتعدد الآلهة[٢].

ويرى رينان[٣] أنَّ الجزريين ومنهم العرب هم موحدون بطبعهم، وأنَّ ديانتهم هي من ديانات التوحيد، ويعول على أصل كلمة(إل) و(إيل) في لهجاتهم، وأنَّ الشعوب الجزرية تعبدت لإله واحد هو إل أو إيل ثم حُرّف اسمه حسب تعدد لهجات تلك الشعوب الجزرية ليبتعد الاسم عن أصله[٤].

فيما يرى روبرتسن سميث الباحث في شؤون الاديان، ان الديانات السماوية(اليهودية والمسيحية والاسلامية) اتصفت بكونها أدياناً إيجابية، أي أنَّها لم تنشأ في إطار أنساق قديمة تؤمن بتعدد الآلهة، التي نشأت في ظل قوى غير واعية تعمل في صمت من حقبة الى حقبة، بل تعود الى تعاليم قام بنشرها مجددون دينيون ذو شأن عظيم كانوا ينطقون بالوحي الالهي ويتحاشون سنن الماضي عن عمد[٥]، وما ظهور فكرة تعدد الآلهة إلّا أقنعة ألبستها أقوام المجتمعات القديمة لمفهوم العالي(إيل أو الإله الواحد) ورأته في تلك الاقنعة فنحتتْ له الأصنام لتجعله موضوعياً(مادياً) ملموساً، في حين ذلك الاله الواحد موجود في أعماق الضمير الإنساني ووجوده مرتبط بوعي الإنسان بذاته[٦].

القسم الثاني:

يرى عدد من الباحثين ومنهم جفري بارندر أنَّ البشر منذ أقدم الازمنة عمدوا إلى عبادة قوى الطبيعة المهمة التي كانت لها أثراً في حياة البشر، فقد جسّموا وشخّصوا هذه القوى وعبدوها على هيئة آلهة، وأهم ما تتصف بها هذه الآلهة أنَّها تشبه البشر أو ما يعرف بمبدأ التشبيه أي أنَّها تتصف بصفات الإنسان الروحية والجسمانية؛ ولكنها تختلف عن البشر فهي اعلى وأسمى من الإنسان وبيدها القدرة ومصير الكون والطبيعة والإنسان وتتصف بالخلود[٧].

وكلُّ إله من هذه الآلهة يتولى مهمة من مهام الكون والطبيعة ولكن يتسيّد إله عالٍ هو إله السماء والأرض يتربع على عرش الربوبية، وهو خالق الموجودات والكائنات وهذا الإله العالي، ظهر في كل عصر ومعتقد شرقي قديم، وهناك ملائكة موكلة بتنفيذ أوامر هذا الإله العالي، ففي حضارة بلاد الرافدين يظهر الإله آنو(إله السماء) ويشابهه الإله الكنعاني (إيل) [٨]والإله (أن) باللغة السومرية و(آنو) باللغة الاكدية هو إله وملك السموات، وله السلطة العليا ويتصدر قائمة الآلهة دائماً [٩]،وما يميز الديانة في الشرق الادنى القديم هو تعدد آلهتها وكثرتها الساحقة او ما يعرف بمبدأ تعدد الآلهة[١٠].

وتتغير مراكز الآلهة وأهميتها تبعاً للتغيرات السياسية، ومثال على ذلك، التبدلات السياسية وتبدل الاسر الحاكمة وتغيير مراكز حكمها، وهنالك دور كبير لكهنة المعابد التي تدخلت في تلك المتغيرات الدينية وتفضيل بعض الآلهة على بقية الآلهة الاخرى، فهي آلهة المراكز السياسية الجديدة، وكثيراً ما عمد

الكهنة للتوفيق بين الآلهة، ويكون هذا التوفيق بعد دمج وظائف هذه الآلهة مع بعضها، لترتفع مكانة بعضها لتتوافق مع التغيرات السياسية، وهذا الاندماج قد يحدث بين اثنين او ثلاثة آلهة لتندمج في إلهة واحد يتركب اسمه من اسماء هذه الآلهة [١١].

وأحياناً يتم جمع صفات الآلهة لتعود إلى إله واحد فقط أطلق عليها دريتون بـ(توحيد الحكماء) وهو توحيد يقوم على مبدأ المحافظة والجمع بين التوحيد وتعدد الآلهة لغرض تحاشي اعتراض مؤيدي تعدد الآلهة والمناخ الديني العام، وهذه الحالة تتكرر في أكثر من ديانة كما نجدها في اليونان القديمة والهند فهناك توحيد حقيقي في إطار من التعددية الظاهرة[١٢].

أما في مدينة بابل فإنَّ الدين هناك لم يخلُ من الاتجاهات الوحدانية، على الرغم من أنَّ تلك الاتجاهات لم تستطيع أنَّ تقضي على فكرة التعددية في المعتقدات الدينية فعندما ارتفع شأن الإله مردوخ ظل مركز مردوخ مميزاً؛ ولكن عُدّ إلهاً من بين الآلهة المتعددة، وهناك بيتان من الشعر يعبر فيها الشاعر عن حالة خاصة تمتع بها الإله مردوخ[١٣]:

" فأذ يتكلم الآلهة عن مردوخ يهتفون:
اذا أنقسم البشر بشأن الآلهة،
أما نحن ،فجميع الأسماء التي قد أطلقناها عليه،
ليكن هو إلهنا" [١٤].

هذه الحالة الوحدانية تكررت عند آخر ملوك بابل الملك (نبونائيد[١٥]) وعند كهنة حران لتفريد الإله سن (القمر)، والمؤلفات الأخلاقية تبين حالة وحدانية ومحاولة التخلص من التعددية، واظهرت المؤلفات الادبية بقية الآلهة بأسماء مشوّه أو تجسيد للإله الاكبر ومظهراً من مظاهره، وهذه الحالة تظهر **في** مكانة كبير الآلهة ومنهم إله السماء[١٦].

إله السماء:

لم يستطع الباحثون من تحديد فترة زمنية معينة ظهر فيها مفهوم إله السماء أو الإله العالي أو السيد، ولم يترك الاقدمون قبل الالف الرابع ق.م آثاراً أو بمعنى أدق عدم وجود آثار جديدة مكتشفه تبين معرفة الإنسان القديم لإله السماء لكي يستطيع الباحثون متابعة مراحل عبادته، وفي منتصف الالف الرابع قبل الميلاد يبدأ التاريخ يوضح عن وجود مفهوم اعتقادي ناضج، وفي بداية الالف الثالث قبل الميلاد تظهر ملامح وأركان هذه العبادة من خلال طقوس وتراتيل قام بها الإنسان، فقد عرف زمن البدء والتكوين وربط حاضره بماضيه الديني، وعرف وجود قوى عليا تتدخل في حياة الإنسان على الأرض ولمصلحته[١٧].

وكان الإنسان القديم ومنذ المدد التي سبقت العصور التاريخية وهي مدد غير محددة زمنياً قد عرف ديانة بدائية تعتقد بوجود قوة سماوية لإله واحد سبقت عبادة تعدد الآلهة وهذا الإله الواحد قد خلق العالم ويدير شؤون العالم، وهو إله السماء والإله الرفيع الذي خلق الأرض والسماء بيد واحدة من لا شيء، واحتوت كل المعابد القديمة على أماكن مخصصة لعبادة إله السماء وهذا الإله لا يمكن تمثيله بصور وليس له مقام أو ضريح أو كاهن؛ لأنَّه منزه عن مقام التقديس البشري، وفي مدد تاريخية متقدمة نجد أنّ إله السماء وعبادته بدأت (تزاحمها عبادة آلهة لأخرى[١٨])، ومنها إله السماء في بلاد الرافدين والهند واليونان والكنعانيين[١٩].

ويفسر ارمسترونغ سبب تراجع عبادة إله السماء (ويتفق معه عدد من الباحثين المستشرقين[٢٠]) الى شعور الناس في العصور القديمة بتراجع دور إله السماء ولم يبقى له إلا دوراً هامشياً لأنه لا يلامس حياة الناس اليومية(المادية)، ويضرب مثالاً معاصراً لتلك الحالة وهو غياب دور الإله الخالق عند الناس في البلاد الغربية في الزمن الحاضر، ولكنه يرجع ويقول، على الرغم من ذلك فقد ظل إله السماء يذكر الناس بالمقدس وابتكار طقوس تشعر المؤمنين بالنشوة الروحية[٢١]، وتجربة المجدد الديني زرادشت التوحيدية في بلاد فارس خير مثال على ذلك فقد دعا زرادشت الى الغاء كل المعبودات عدا الإله

اهوارامزدا، فكان تبدلاً عنيفاً وقفت طبقة الكهنة المجوس ضدها، وعندما استولى هؤلاء على زمام الامور، وعملوا للقضاء على (ثورته الدينية[٢٢]) بعد وفاته واسترجعت الآلهة القديمة مكانتها بعد سلب الصفات الروحية للإله الواحد اهوارامزدا[٢٣]، وتتكرر هذه الحالة في عقائد الشعوب الجزرية.

الإله الواحد عند الأقوام الجزرية:

(إل) هو إله سامي (جزري) مشترك لكل قبائل الجزيرة العربية، و(إل)عند الاكديين والكنعانيين وألو هيم/ يهوه عند العبرانيين، والله عند العرب، وعرف ايضاً عند السبأيين بمعنى إله، ويدخل عنصراً في اعلام الاشخاص ومن هذه الاسماء التي تدلل على الخضوع للإله منها العزيز والامين والعادل والملك[٢٤] ويظهر اسم الإله الواحد عند عقائد الاقوام العربية القديمة، ومنها الإله الثمودي عم، ويعني الرؤوف الرحيم، وسميع أي السميع، وأبتر أي ليس له ولد وهذا ما يؤكده النص الآتي:

"(هـ اله ابتر بك سر لن) أي يا إله الواحد بك سرور لنا"[٢٥].

وفي الاسماء الشخصية المركبة للثموديين، ما يدل على مقام رفيع للسيد العالي صاحب الكلمة الخالقة، على الرغم من وجود رموز اعتقادية؛ ولكنها لم تجاري إيل او إل في مقامه، ولكن كانت اسماء ملائكية متأثرة بمحيطها الشرقي، والمهم في الامر هو خلو مجمع الآلهة الثمودية من اسم الإله إيل[٢٦].

وهناك اسماء يدخل فيها اسم الله مثل((جبر إيل- بمعنى الله يساعد، حي إيل- الله حي، وخير إيل- خير الله، خل إيل- خليل الله، يسمع إيل- اسم –يل- اسماعيل-سموئيل-اسم الله) [٢٧]، وهذه الاسماء المركبة كما يرى مارك سميث، تدلل على خصوصية متعلقة بالإله إيل، وتدلل على وظيفة من الوظائف المناط بها من قبل الإله إيل[٢٨].

ووجدت أدلة تاريخية تؤكد اعتقاد العرب قبل الاسلام بديانة التوحيد، ومنها عبادة الإله الرحمن، وذكر علماء اللغة أنَّ الرحمن اسم مخصص بالله ولا يجوز أنْ يسمى به غيره [٢٩]، ومن الألقاب التي تطلقها نصوص أوغاريت على الإله (إيل) أبو البشر وخالق الخلق وأبو السنين(أي الخالد) والملك والحكيم والطيب وذو الفؤاد (الرحيم) وهو إله بعيد عن الموجودات الإلهية والبشر والكل بحاجة إليه إذا ازمهم أمراً من الأمور[٣٠].

ويبدو أنَّ فكرة وجود الإله الواحد كانت منتشرة بين أقوام وشعوب شبه الجزيرة العربية، ولم تظهر النصوص القديمة ارتباطها بشخصية دينية اصلاحية معينة تاريخياً، ولكن وفي بدايات الالف الأول قبل الميلاد ظهرت فكرة التوحيد بصفة دعوات اصلاحية على يد المجددين الدينيين.

المجددون الدينيون:

أنَّ هناك مسألة مهمة تتعلق بظهور الأفكار الدينية التجديدية، وخاصة تلك التي تحمل طابعاً اصلاحياً، أذ تتخذ من الطبقات الشعبية مجالاً لانتشارها والحصول على تأييدها؛ لذلك تظهر في النقوش والنصوص الدينية أنَّها اكثر من دين تقليدي شعبي، فقد كان هنالك دور واضح لرجال الكهنوت من جانب والمؤسسة السياسية الرسمية من جانب آخر، وهذا ما نراه في النصوص البابلية والآشورية والمصرية القديمة، وهي مزيج مصطنع من عناصر مختارة من ديانات محلية جمعت لتأخذ نسقاً يخدم السلطة السياسية والاحتمال الأكبر أنَّ الديانة الحقيقة كانت أبسط من النظام الرسمي دائماً [٣١]، كذلك فأنَّ المؤسسات الدينية هي اقدم من النظريات الدينية[٣٢]مما يجعلها تتحكم في أي نظريات دينية جديدة تحاشياً لظهور أفكار دينية إصلاحية تنهار بأثرها تلك المؤسسات الدينية.

وما يميز الدراسات التاريخية الاكاديمية هو وجود دليل تاريخي غامض حول وجود الرسل والانبياء وتركز ذكر هؤلاء الرسل والانبياء على الكتب الدينية[٣٣]، وعلى الرغم من ذلك، ذكرت النصوص التاريخية مجددين دينيين في مدد زمنية متفرقة من أنبياء وحكماء كان لهم تأثير كبير في حياة الشعوب واطلق الباحث الالماني كارل كاسبر على مدة النصف الأول من الألف الأول ق.م بالعصر

المحوري؛ لأنَّ أنبياء وحكماء هذه المدد برهنوا على دورهم المحوري في حياة الشعوب، وظل تأثير الكثير من افكارهم إلى الوقت الحاضر من انبياء يهود وحكماء في بلاد اليونان والهند والصين.

ولكن لماذا هذا التحول وبهذه السرعة قياساً بالمدد السابقة الطويلة من عمر الإنسانية؟ ولماذا ظهرت في أماكن متفرقة من العالم؟ ولماذا تركزت في حضارات دون اخرى ؟

لا ننسى دور الاحداث السياسية وانعكاساتها الاجتماعية والاقتصادية على تطور الاحداث في كل حضارة وما يميز هذه المدة هو وجود أحداث سياسية وحروب ومذابح ساعدت على ظهور هؤلاء الانبياء والحكماء على أنهم مجددين ذوي تأثير كبير للخروج بحلول من واقع مدمر، كما أنَّ تلك الحركات التجديدية ركزت على المعاناة الإنسانية والحاجة الى دين روحاني وعدم فاعلية الطقوس والممارسات الدينية التقليدية ووجوب احترام الآخر ونشر العدالة وعدم الأخذ بالأمور الدينية على أنّها مسلمات، أما سبب عدم ظهور تلك الأفكار في بلاد الرافدين ومصر القديمة فيعود إلى قوة السلطة السياسية وتحكم رجال الدين بحركة الاقتصاد وبالعكس[٣٤].

وأنَّ ما يميز مناطق ظهور الافكار الدينية الجديدة هو تحكمها (تجاراً ورجال أعمال) بحالة الاقتصاد وهذا ما أفقد رجال الدين التقليديين من كهنة وارتباطاتهم بالسلطة السياسية مزايا فرض آراءهم الدينية[٣٥]، ولكن هناك حالات خاصة لم تمنع من ظهور افكار تعبر عن تمرد قامت بها السلطة السياسية على هيمنة المؤسسة الدينية وأدى الى تقاطع بين الكهنة والسلطة السياسية كما ظهر في مصر(عهد الامبراطورية المصرية) وبالتحديد زمن الفرعون المصري اخناتون(١٣٦٠- ١٣٤٣ق.م) ولكن تلك الثورة الدينية أُجهِضَتْ بعد موت أخناتون وعادت مصر الى ديانتها السابقة(تعدد الآلهة) [٣٦].

ولم تظهر هذا التقاطعات في مجالها الأوسع في ظل الكيانات السياسية، بل بالعكس اخذ المجددون الدينيون حريتهم في فرض آرائهم حتى على السلطة السياسية، ويمكن ملاحظة ذلك في اديان شمال شبه الجزيرة العربية.

فقد سمي النبي[٣٧] باللغة العبرية(نابي) أي الذي يدعوه الله، والله يختار النبي ويوحي إليه ليحمل رسالته إلى الناس، ومن تلقى تلك الدعوة ذهب إلى السوق أو المعبد أو القصر الملكي، وكانت دعوته تدور حول محورين: أولهما الدعوة الى الوحدانية الخالصة ورفض عبادة تعدد الآلهة وثانيهما صلاح الأخلاق، وحرص الأنبياء على طهارة العيش والنقاء وكثيراً ما حرص هؤلاء الانبياء على العيش بزهد وتقشف أو الاعتزال والعيش بنسك، وتظهر حركة النبوة بالأعمال او بالأقوال وكفاحها ضد التوفيق بين ديانة التوحيد وغيرها من الاديان الاخرى[٣٨] وضد الفساد الديني[٣٩]، وحين يقوم المصلحون والمجددون الدينيون بجهود لغرض محاربة أسطورة ما نجد رجال المؤسسة الدينية التقليدية يعيدون تلك الأسطورة من جديد الى حياة الناس بشكل ومظهر مختلف وظلت تلك الاساليب متحققة حتى في أعقد النظم الدينية والأكثر تطوراً[٤٠].

ومن بين هؤلاء المجددين الدينيين النبي العبراني موسى، ولم تتفق المصادر حول تاريخ ظهور دعوة النبي موسى التوحيدية بشكل دقيق، ولكن يفترض المؤرخون أنَّها ظهرت في المدة ما بين (القرنين الثالث والرابع عشر ق.م) ومن بين الاحداث التي واجهها النبي موسى هو خروجه مع قومه من العبرانيين من مصر هرباً من اضطهاد السلطة السياسية هناك، وعلى الرغم من وجود بعض الآراء حول اثبات وجوده والاحداث التي رافقت خروجه ألّا أنَّ هناك بعض الآراء لمستشرقين ومنهم سيجموند فرويد تشكك بأصله العبري وتنسبه لعائلة مصرية نبيلة، ولكن هناك من الادلة التي تثبت اصله العبراني وأنَّ الديانة التوحيدية التي جاء بها هي بعيدة عن الديانة المصرية وتتقاطع معها [٤١]، فرب العبرانيين يسمى يهوه ويتصف هذا الإله بكونه محجوب عن الانظار وهو مقدس وعادل، وليس له مسكن ثابت، ويمكن ان يكون في أيّ مكان، ولا يصور بأية صورة إلا في حالات معينة، وليس له أسرة أو أبناء[٤٢]، وكان هناك تقاطع بين الديانتين العبرية التوحيدية والمصرية التي تؤمن بتعدد الآلهة، فالديانة التوحيدية تؤمن بوجود إله واحد أحد كلي القدرة لا يقع تحت الإدراك ولا يمكن رؤيته ولم تكن هناك صورة له؛ بالمقابل هناك ديانة

الأغلبية في مصر والتي تؤمن بعدد وافر من الآلهة متجسدة في صور وأشكال متفاوتة في الأهمية متخذة صوراً حيوانية في الغالب[٤٣].

ويمكن ملاحظة حالة ظهور الانبياء في زمن الملك الفينيقي زَاكَر بعل ملك بيلبوس(جبيل) (القرن الثاني عشر ق.م)، فقد زار مبعوث مصري قصر الحاكم وعاصمته ومن جملة ما رآه في المدينة حالة شاب فينيقي يقع في غيبوبة نبوة[٤٤]تماثل ما تمتاز به صورة النبوءة العبرانية بين بني اسرائيل، وكما حدث مثلاً لشاؤول العبراني ومنه جاء المثل القديم(**شاؤول ايضاً من الانبياء**) [٤٥] ويعبر كارين ارمسترونغ عن هذه الغيبوبة في قصص الانبياء بأنَّها حالة الصعود والارتباط الروحي بالسماء، وهي حالة ابتعاد عن الضعف الإنساني والارتقاء الى من يقع وراءه، ويرى أنَّ لا يمكن قراءة قصص الانبياء حرفياً، فملاقاة موسى لربه على الجبل وصعود السيد المسيح الى السماء وصعود النبي إيليا الى السماء بعربة نارية هو اختراق لمستوى جديد من الكينونة الروحية وهو ارتحال لعالم القداسة الواقع فوق التجربة البشرية[٤٦].

ويظهر الأثر السياسي في ظهور ومساعي المجددين الدينيين، فقد ادى موت الملك سليمان(٩٦٠-٩٢٢ق.م) إلى انقسام مملكته على قسمين شمالية (اسرائيل) وجنوبية (يهوذا)، وقيام صراع بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب فضلاً عن دخول عبادة آلهة وطقوس غير توحيدية اخرى الى اورشليم كل ذلك ساعد على قيام الأنبياء بدورهم لوقف تلك العبادات والطقوس، وكان لتجاهل السلطة السياسية لدخول العبادات والطقوس غير التوحيدية سبباً في عداء الأنبياء للسلطة السياسية[٤٧].

وظهرت طليعة الأنبياء الكبار في مملكة اسرائيل في القرن التاسع قبل الميلاد، فقد قام الانبياء(الياهو واليشع) بردة فعل ضد العبادة غير التوحيدية للملك احآب(حوالي ٨٧٦-٨٥٤ق.م) والقضاء على عبادة تعدد الآلهة، ولكن على الرغم من هذه الجهود عادت تلك الرموز غير التوحيدية للظهور بعد ذلك، وكشفت التنقيبات الاثرية عن وجود كثرة من الاشجار المقدسة ذات النمط الكنعاني ومذابح البخور والتماثيل الصغيرة للآلهة والتمائم، وفي منتصف القرن الثامن ق.م ظهر انبياء جدد مثل عاموس وهوشع وميكا (ميخا) اطلق على هؤلاء الانبياء بـ(المنشدين الجوالين) لأنهم كانوا ينذرون الناس وينصحونهم بمواعظ وارشادات وهم في حالة تجوال دائم[٤٨]

وبرز نبيان في فترة اضمحلال مملكة يهوذا ومنهم النبي أشعيا وقت سقوط اسرائيل والنبي ارميا حين سقطت العاصمة اورشليم وقد تنبأ النبي اشعيا بسقوط اسرائيل والذي حدث زمن النبي ارميا[٤٩] وكان النبي اشعيا احد انبياء يهوذا(القرن الثامن ق.م) ومعنى اسمه (الله يخلص)وقد اعلن نبوته زمن الملك آحاز(٧٣٦-٧١٦ق.م) وعاصر النبي أشعيا مدة السيطرة الآشورية وشهد دمار مدينة السامرة(٧٢٢-٧٢١ق.م) وانتقد انجرار اليهود نحو التعددية ورفض أي تحالف اجنبي خوفاً من دخول أفكار غير توحيدية، وبشر بظهور المسيح المنتظر من نسل داوود ودعاه عمانوئيل أي (الله معنا) [٥٠].

وتعرض الانبياء لاضطهاد قاسي في زمن(الملك منشي٦٩٣-٦٤٢ق.م) [٥١] فقد وقع هذا الملك تحت تهديد الملك الآشوري سنحاريب ومحاصرته للعاصمة اورشليم فحاول الملك منشي التقرب للآشوريين من خلال ادخال بعض العبادات الآشورية؛ مما اثار معارضة الانبياء لهذا التوجه[٥٢].

أما النبي ارميا(٦٥٠-٥٨٠ق.م)وهو أحد أنبياء اسرائيل الأربعة الكبار ينتسب إلى قبيلة بنيامين بدأت نبوءاته أيام حكم الملك يوشيا وعاصر فترة السيطرة المصرية أيام الملك (يواكيم) والسيطرة البابلية بعد ذلك، وحاول تجنب دمار بلاده فدعا إلى الخضوع للسيطرة البابلية مما تسبب باضطهاده، وقد اثبتت الاحداث صدق نبوءاته فقد سببت معاداة بابل الى سقوط اورشليم مرتين بيد البابليين، وقد دعا النبي ارميا للتقرب الى الله ، والتعمق في الدين إلا أنَّ تأثير دعواته لم تتبلور إلّا بعد موته وتروي النصوص المسيحية القديمة موته على يد اليهود نتيجة تلك الدعوات[٥٣].

وفي مرحلة السبي البابلي وزوال الدين الرسمي اليهودي بزوال الدولة اليهودية، يظهر النبي حزقيال(٧١٥-٦٨٦ق.م) ويظهر من خلال رؤى النبي حزقيال النظرة الجديدة في اطار يقوده الانبياء

فضلاً عن المؤسسة الكهنوتية فتظهر الوحدانية العالمية متجردة من رواسب الماضي عندما تتدخل السلطة السياسية في بنية الدين وطقوسه [٥٤].

ويظهر نبي كبير اطلق عليه الباحثون (النبي اشعيا الثاني)؛ لأنَّ نبوءاته ضمت إلى نبوءات النبي اشعيا الاول، وكان يدعو الى الوحدانية النقية، ويرى في الشقاء وسيلة للتطهر اتاحها الله[٥٥]. وقد اعلن اشعيا الثاني بوجود إله واحد فقط هو يهوه، وكان ملك جنوب فلسطين يدعى (حوزيا) قد مهد السبيل لخطوات النبي اشعيا بإخراج رموز الآلهة من هيكل القدس وإلغاء كل الاماكن المقدسة الأخرى في مملكته عدا هيكل القدس[٥٦].

وعلى الرغم من هذه الجهود لكنها لم تمنع من ظهور فرق دينية متعددة، فقد انقسم اليهود زمن ظهور السيد المسيح الى ثلاث فرق (الفريسيون والصديقيون والاسينيون) وعرف الاسينيون منهم بتقواهم وابتعادهم عن الملذات الدنيوية، وهم بذلك يخالفون باقي الفرق اليهودية في كثير من معتقداتهم وكان اعتقادهم توحيدي[٥٧].بدلالة النص الأسيني الآتي:

"كل شيء يحدث بإرادتك،
ولا شريك لك بجانبك يناقش في رأيك،
ولا شريك لك يفهم خططك القدسية"[٥٨].

ويرون أنَّ هنالك صراعاً يقوم في العالم وفي قلب الإنسان بين قوى الخير وقوى الشر، وأنَّ الله كفيل بنصرة الخير عند حلول نهاية العالم ومجيء المسيح المنتظر ويمتد تاريخهم من القرن الثاني ق.م الى القرن الاول ق.م وأثبتت مكتشفات البحر الميت فكرة أصح عن الاسينيين والعهد الجديد وعن انتماء مؤيدي ومريدي السيد المسيح الى هذه الطائفة قبل ان ينضموا إلى الكنيسة المسيحية البدائية وأنَّ القديس يوحنا المعمدان ينتمي الى هذا الطائفة وأنَّ الصحراء التي كان يعمد فيها هذا القديس هي صحراء قمران وهناك دير خاص بالاسينيين في تلك الصحراء[٥٩].

ولغرض الخروج من الفكر المتطرف اعلن السيد المسيح رفضه لفكرة تأليههُ وأشار إلى أنَّه لا يستوي مع الله في الهوية[٦٠] ، وتؤكد نصوص البحر الميت حقيقة المسيح المنتظر بدلالة النص الآتي:
"الرب اقامك كحاكم"[٦١]

وقدر للمسيحية الانتصار بعد رحيل السيد المسيح واستطاعت المسيحية الخروج من أفق التوحيد اليهودي عندما احتوت بقية الديانات المنافسة لليهودية[٦٢] وما كان لهذا التوحيد المتجرد أنَّ يستمر، فبعد ظهور القديس بولس الطرسوسي وهو يهودي ومن اصول تعود الى اسيا الصغرى أسس الكنيسة المسيحية الجديدة وجاء بعقيدة وترجمة جديدة لحياة وعقيدة السيد المسيح وحواريه الاثني عشر وكان بولس يدافع عن عقيدة جديدة موغلة في الوثنية وليس لها علاقة باليهودية[٦٣]، ويرى هيم ماكبي أن للسلطة السياسية زمن الدولة الرومانية دور في تسخير امكاناتها للوقوف في وجه التيارات الشعبية الاصلاحية ومنها دعوة النبي عيسى عندما استعانت بالقديس بولس الطرسوسي لتحريف تلك الدعوة عندما تحول هذا الرجل من تابع ورجل أمن للسلطة السياسية(المجمع الديني اليهودي) وعلاقته الحسنة بالسلطات الرومانية إلى مبشر لدعوة السيد المسيح بصورتها الجديدة والبعيدة عن دعوة السيد المسيح التوحيدية[٦٤]

الاستنتاجات

١. تتفق كل الديانات وعلى مرَّ العصور على وجود إله عالٍ له الكلمة الفصل وله صفات مميزة لا يجاريها أي إله آخر.
٢. ظهر وبشكل كبير دور الإله العالي في منطقة الشرق الادنى القديم وخاصة عند الاقوام الجزرية ومنها القبائل العربية القديمة.
٣. يمكن استشفاف دور بعض الأنبياء في المصادر التاريخية القليلة الخاصة بهم فضلاً عن النصوص الدينية للأديان التوحيدية.

٤. يظهر دور المجددين الدينيين بشكل واضح في العصر المسمى بالعصر المحوري(الإلف الأول قبل الميلاد)

٥. يظهر دور المجددين الدينيين بشكل كبير في مناطق شمال وشمال غرب الجزيرة العربية.

الهوامش والمصادر:

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج٢ ،ف ٦٨، ص٦٧٨

(٢) مرسيا الياده، البحث في التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة سعود المولى، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، ٢٠٠٧)، ص٣٥ .

(٣) المؤرخ رينان: مؤرخ فرنسي الجنسية عاش في القرن التاسع عشر الميلادي ومن المؤرخين الذين اهتموا بدراسة الاديان التوحيدية، هيم ماكبي، ،بولس وتحريف المسيحية، ترجمة سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، (ب.ت)، ص٣٢.

(٤) جواد علي، المصدر السابق، ص٦٧٨ .

(٥) روبرتسن سميث، محاضرات في ديانة الساميين، ترجمة عبد الوهاب علوب، المجلس العالي للثقافة، (القاهرة، ١٩٩٧)، ص١ .

(٦) جورجي كنعان، مفهوم الإلوهة في الذهن العربي القديم، بيسان للنشر والتوزيع، ط٢، (بيروت، ١٩٩٦) ،ص ١٠-ص١١.

(٧) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (حضارة وادي النيل)، دار الوراق للنشر المحدودة، (بغداد، ٢٠١١)، ج٢، ص١٠٤. وايضاً جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة امام عبد الفتاح امام، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد١٧٣، (الكويت،١٩٩٣)، ص١٣.

(٨) بشار خليف، نشوء فكرة الإلوهة، مقاربة تاريخية-فكرية، الأهالي للطباعة والنشر، (دمشق، ٢٠١١)، ص٧١

(٩) سبتيمو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة ترجمة السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (القاهرة، ب.ت)، ص٢٥٢-ص٢٠٣.

(١٠) باقر ،المصدر السابق، ص١٠٣.

(١١) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(١٢) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(١٣) فرانسوا ديماس، آلهة مصر، ترجمة زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،(مصر، ١٩٩٨)، ص١٥٢.

(١٤) رينيه لابات، المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين- مختارات من النصوص الدينية، ترجمة البير أبونا ووليد الجادر ،(بغداد،١٩٨٨)، ص٧٤.

(١٥) في الألف الأول قبل الميلاد فقد كانت للحروب التي دارت بين البابليين والغزاة في زمن الدولة البابلية الحديثة(٦٢٧-٥٣٩ق.م) قد لعبت دوراً في محاولة تغيير مركز الإله مردوخ ودفعت الملك البابلي نبونائيد(٥٥٥-٣٣٩ق.م) على خلق قوة كبيرة لمواجهة خطر الدولة الأخمينية عندما جمع شمل القبائل الآرامية، ولغرض للوصول الى ذلك كان عليه دعم عبادة الإله سين ليتسنى ربط الآراميين الى شخصه، احمد عبيس فيروز الرماحي، تبدل مراكز الآلهة في بلاد الرافدين ومصر القديمة، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق، ٢٠٢٠)، ص٣٨.

(١٦) رينيه لابات وآخرون، سلسلة الاساطير السورية(ديانات الشرق الاوسط)،ترجمة مفيد عرنوق، دار علاء الدين ط٢، (دمشق ،٢٠٠٦)، ص٧٩.

(١٧) كنعان، المصدر السابق، ص ١٥٥-١٥٦

(١٨) للمزيد حول منافسة بقية الآلهة للإله الاكبر مراجعة: الرماحي، تبدل مراكز الآلهة، ص٣٢- ص٥٦.

(١٩) كارين ارمسترونغ، تاريخ الأسطورة، ترجمة وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم ناشرون، (بيروت ،٢٠٠٨)، ص٢٣-٢٤٤ .

(٢٠) من هؤلاء الباحثين الذين يؤيدون هذا الرأي ثوركليد جاكبسون: هنري فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط٢، (بيروت، ١٩٨٠)، ص١٦٧.

(٢١) ارمسترونغ ،المصدر السابق، ص٢٥.

(٢٢) للمزيد حول ثورة زرادشت الدينية ودور كهنة المجوس في القضاء عليها مراجعة: احمد عبيس فيروز الرماحي، تطور الافكار والمعتقدات الدينية في ايران القديمة، اطروحة دكتوراه، جامعة واسط،(واسط ٢٠٢١)، ص٢٦-ص٤٠ .

(٢٣) ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة نيقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، (بيروت،١٩٨٨)، ج١، ص٣٦٩.

(٢٤) موسكاتي، المصدر السابق، ص١٩٤-ص١٩٥ .

(٢٥) محمود محمد الروسان، القبائل الثمودية والصفوية دراسة مقارنة مطابع جامعة الملك سعود، (السعودية ١٤١٢هـ)، ص١٥٨ .
(٢٦) خليف، المصدر السابق، ص٢٠٣
(٢٧) المصدر نفسه، ص١٥٣.
(٢٨) دانيال عيوش، التوحيد، الدين والتاريخ بين اوغاريت واورشليم، مقاربات مارك سميث للعهد القديم على ضوء العلوم الأوغاريتية، (د.ت)، ص٢.
(٢٩) موسكاتي ،المصدر السابق، ص٢٠٦.
(٣٠) المصدر نفسه، ص٢٧٣.
(٣١) سميث، المصدر السابق، ص١٤.
(٣٢) المصدر نفسه ،ص٢١ .
(٣٣) خليف، المصدر السابق، ص١١ .
(٣٤) ارمسترونغ، المصدر السابق ،ص٧٣-ص٧٤ .
(٣٥) المصدر نفسه ، ص٧٣-٧٤ .
(٣٦) باقر، المصدر السابق ،ج٢،ص١٠٣ .
(٣٧) تختلف مهام النبي عن مهام المتنبئ والاخير يتوجد في المعابد القديمة وفي كل ديانة بينما يقوم دور النبي لأغراض اصلاحية كمجدد ديني بينما الكاهن(المتنبئ) وظيفته معرفة الحوادث والاخبار بالمغيبات والوقوف على الامور المستقبلية عن طريق التنبؤ ولكن يوصف الكاهن بأن هناك اعراض بادية عليه والخطاب الذي يرتبط بعمله كفيله باشتراكه مع النبي بتلقي علمه عن طريق الوحي(كائن لطيف خفي غير مرئي) لا يتمكن الناس من سماعه وملاحظة اللقاء بين المُبلغ والمُبلَّغ: محمد النوّي، الحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام ،مؤسسة مؤمنون بلا حدود،(الرباط،٢٠١٥)، ص١٥.
(٣٨) قام اليهود الساكنون في مصر العليا بالتوفيق بين ديانتهم والديانات الاخرى ومنها اتخاذ الإلهة الفينيقية عناة كزوجة لإله اليهود يهوه، ومن النصوص الاوغاريتية أسطورة دخول الإله بعل إله اوغاريت في حرب دموية مع الغيلان البحرية واشرسها لوتان نجدها في نصوص التوراة "لقد ضربت البحر(يم) وكسرت رأس الغيلان فوق المياه لقد كسرت رأس ليوتان" يُنظر: لابات، سلسلة الاساطير السورية، ص٤٣٠- ص٤٣٤.
(٣٩) موسكاتي، المصدر السابق، ،ص١٥١.
(٤٠) ارمسترونغ، المصدر السابق، ص٧٥.
(٤١) سيجموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٤، (بيروت ،١٩٨٦)، ص٧ -ص٨ .
(٤٢) موسكاتي ،المصدر السابق، ص١٤٨-ص١٤٩.
(٤٣) فرويد، المصدر السابق، ص٢٥ .
(٤٤) للمزيد حول رحلة المبعوث المصري(ون آمون) الى بيلبوس مراجعة: كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، مج٢، (القاهرة، ١٩٩٦) ، ص٣٢٩-ص٣٣٥.
(٤٥) جيمس هنري بريستيد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة،١٩٩٩)، ص٣٨٨ .
(٤٦) ارمسترونغ، المصدر السابق، ص٢٦.
(٤٧) موسكاتي، المصدر السابق، ص١٤٤-ص١٤٥ .
(٤٨) المصدر نفسه، ص١٤٥ .
(٤٩) المصدر نفسه، ص١٤٦.
(٥٠) هنري عبودي، معجم الحضارات السامية، ، جروس برس ،ط٢، (طرابلس ١٩٩١)، ص٨٦ .
(٥١) الملك منشي ابن حزقيا: هو الملك الرابع عشر لمملكة يهوذا(٦٩٣-٦٤٢ق.م) كان تابعاً للآشوريين وقام لاهداف سياسية باضطهاد اتباع الإله يهوه وادخال العبادات الآشورية الى بلاده وقدم الاضحيات لها: المصدر نفسه، ص٨١٦.
(٥٢) موسكاتي، المصدر السابق ، ص١٤٦.
(٥٣) عبودي، المصدر السابق، ص٦٩-ص٧٠.
(٥٤) موسكاتي ،المصدر السابق، ص١٤٧ .
(٥٥) المصدر نفسه ، ص١٤٧ .
(٥٦) توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة نيقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، (بيروت،١٩٨٨)، ج١، ص٣٥٩.

[٥٧] عبودي، المصدر السابق، ص٧٩-ص٨٠ .
[٥٨] غيزا ڤيرم، النصوص الكاملة لمخطوطات البحر الميت، ترجمة سهيل زكار، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق، ٢٠٠٦)، ص١٦٥.
[٥٩] عبودي، المصدر السابق، ص٧٩-٨٠ .
للمزيد حول مخطوطات البحر الميت :مراجعة احمد عثمان، مخطوطات البحر الميت، مكتبة الشروق ،(د.ت).
[٦٠] توينبي، المصدر السابق، ص٣٧٢.
[٦١] بهجت عبد الرزاق الحباشنة، لفائف البحر الميت في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة دراسة تحليلية، كلية الدراسات الفقهية والقانونية ، (المفرق، ب ت)، ص٤٠.
[٦٢] توينبي، المصدر السابق، ص٣٦١.
[٦٣] ينقل لوقا في انجيله عن اصل بولس وعلى لسانهِ" انني رجل يهودي ولدتُ في طرسوس(كيليكيا) ولكني رُبيت في هذه المدينة(القدس)..." عمل بولس شرطياً تابعاً للمجمع الديني اليهودي وعمل على مطارة اتباع السيد المسيح ليتحول الى داعية للسيد المسيح بعد فترة قصيرة ويعلن ان السيد المسيح ظهر له وان رؤاه الصوفية افضل من مرافقة السيد المسيح في حياته ليأتي بمسيحية جديدة تختلف عن المسيحية البدائية التي جاء بها السيد المسيح، يُنظر: ماكبي، ، المصدر السابق، ص١- ص١٤.
[٦٤] يُنظر: المصدر نفسه، ص١٧- ص٢١.